أهمية الفنون في التنمية في كتاب «الثورة الإبداعية للأمم: هل تستطيع الفنون أن تدفع التنمية إلى الأمام؟»

الباحث محمد حدوي
أستاذ علم الاجتماع، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال
المغرب

بعد الكتاب المعروف «ثروة الأمم: بحث في طبيعة ثروة الامم» الذي نشره الاقتصادي الأسكتلندي البارز أدم سميت(1723-1790) عام1776، والذي رفض فيه تدخل الحكومات في الاقتصاد، وطالب بتركه لقوى العرض والطلب، يطل علينا الخبير والموسيقار Patrik Kabandaكابندا باتريك في عام2018 بكتاب آخر جميل بموضوع جديد وشديد الأهمية تحت عنوان «ثروة الأمم الإبداعية: هل تستطيع الفنون دفع التنمية إلى الامام؟»[1]. الكتاب من 416صفحة.

بارتيك كابندا[2] الاوغندي الاصل، المؤلف الموسيقي والعازف ومستشار التنمية في البنك الدولي، كابندا الذي استطاع أن يمزج بسهولة، وبشكل ممتع، بين مهاراته المعروفة بوصفه عازف موسيقى، وبين تمكنه من وصف المشكلات الصعبة وكذلك الحلول الخاصة بها، على نحو واضح وجلي، وقابل للتوصيل أيضا للقراء على نحو بسيط وقوي. انطلق لعرض أطروحته، باعتماد حجة الامثولة، وذلك بتخيل بلد أطلق عليه اسم «كرييتفيريا» Creativeria، هذا البلد الذي أصاب الخبراء بالحيرة، لأنه رغم امتلاكه لقاعدة اقتصادية شديدة الثراء، لايستفيد من ثروته، شأنه في ذلك شأن بلدان ثالثية كثيرة، سوى قلة من السكان، بينما الباقي يزداد فقرا بشكل عريض عند سفح المجتمع. كابندا يضيف وجهات نظر جديدة ومتميزة إلى أفكار سميت الاقتصادية الكلاسيكية، يحاول أن يعرض تلك الطرق العملية التي يمكن من خلالها توظيف الفنون وتطبيقها من أجل تعزيز عمليات التقدم الاقتصادي والاجتماعي ذات المعنى. لقد حاول الكتاب أن ينفتح على الثروة الإبداعية للأمم التي تتمثل في التراث، وكذلك الممارسات الخاصة بالفنون التي تشكل جانبا من الجوانب المهمة في التنمية. وتكمن أهمية الكتاب في كونه يتجاوز الوقوف عند الجوانب المادية من الاقتصاد ليحتفي بالإبداع في الفنون عامة، والتركيز على أهميته ودوره في أثراء حياة البشر بما يناسب والمرحلة الجديدة، التي تعيش فيها البشرية، في هذه الألفية الجديدة

كما تكمن أهمية الكتاب في راهنيته ومن خلفيته النادرة حيث ارتباط بحوث صاحبه بخبرة الممارس للموسيقى والذي له أيضا اهتمامات بالتنمية الاقتصادية إضافة إلى خبراته وملاحظاته حول معدلات النمو في الدول النامية وعلى رأسها الدول الافريقية. المؤلف يحاول أن يوضح لنا الاسهامات الاقتصادية التي يمكن أن تقدمها الفنون، وكيف يمكن للفنون أن تساهم في أثراء العالم. أما السؤال العريض الذي انطلق منه الكتاب ويسعى إلى إجابة واضحة عنه من منظور إنساني بدلا من تلك النظرة المادية الكلاسيكية السائدة منذ زمن آدم سميت، فيتمثل في: كيف يمكن أن تعزز الفنون عمليات التنمية؟

باتريك كابندا الذي حاول تبليغ رسالته حول أهمية الفنون في التنمية، حاول الإجابة على سؤاله برنين مرتفع وواضح في تسعة فصول مختلفة يكمل بعضها البعض.

ينطلق كابندا في افتتاحية مؤلفه من فكرة مفادها إن للفنون دورا حيويا يمكنها أن تؤديه في الوصول إلى عالم متقدم اجتماعيا واقتصاديا ومتحرر من الفقر، عالم يمكن لكل إنسان فيه أن يعيش حياة ذات معنى. لقد استهل المؤلف افتتاحية كتابه بملاحظة للبنك الدولي مفادها: «إن الحفاظ على التراث الثقافي والمنتجات الثقافية ودعمها، يمكن أن يساعد في خفض ذلك الفقر المدقع الموجود في البلاد

النامية، والتي هي بلاد فقيرة اقتصاديا، لكنها تتميز على الرغم من ذلك، بتراث ثري ومتنوع». وفي هذه الافتتاحية تحدث عن التنمية المستدامة والتنمية الهادفة، كما تطرق إلى دور الفنون في تحسين أوضاع الناس، فهو لا يعتبر الفنون والثقافة من «الكماليات»، بل يعدان أمران جوهريان يمكن أن يسهما في تحسين مستوى نوعية حياة الناس. فالثقافة والموسيقى يمكن أن تسهما في الفهم المتبادل بين الدول ويمكن أن تسهما في التقدم الاجتماعي والاقتصادي، فهي لا تشكل كل الحل بل جانبا منه. وبما أن النمو الاقتصادي الحديث نمو يحركه الابداع والابتكار، وبما أن الفنون هي أوصياء الابداع والخيال، من هنا تأتي ضرورة ربط علاقات طيبة وناعمة مع مجالات التعليم وريادة الاعمال وعالم التجارة والأعمال، وكذلك في مجالات البحث والتطوير. إن انتشال مواطني الدول النامية من الفقر المدقع، لابد أن يتضمن أيضا فهما إضافيا منتظما للطرائق التي قد تتمكن الأنشطة الثقافية، ومن خلالها، في أن تؤدي دورا في الحل، وفي تبني الشمول الاجتماعي. وقد عزز المؤلف موقفه بالكثير من الأمثلة الواقعية من دول مختلفة في مجال الفن والموسيقى لكي يبين القيمة الأساسية للثقافة ملحة لبناء الأسس الخاصة للتنمية البشرية والمستدامة، ومن بين الأمثلة الواقعية تلك جولة معهد أفغانستان القومي للموسيقى في الولايات المتحدة خلال شهر فبراير2013 التي حققت نجاحا في تاريخ العلاقات الثقافية بين أفغانستان والولايات المتحدة، وهي أمور لم تحققها لا الحرب ولا الاقتصاد.

القسم الأول

في هذا القسم الأول من الكتاب، تناول المؤلف علاقة الفنون والاقتصاد والتنمية، واستهل حديثه بعرض مقولة المفكر الهندي أمارتيا سن حول أهمية الفنون في التنمية، وحاول مناقشة ما وصفه بسيمفونية مزدحمة بالقفلات الخادعة، تعمل على الذهاب بعيدا في اتجاهات غير متوقعة، وهذه السيمفونية هي سيمفونية «الدجاجة والبيضة»، فبينما يعتقد البعض أن التوسع الاقتصادي ينبغي أن يأتي أولا، يرى البعض الاخر أن الثقافة هي التي تأتي أولا. وقد حاول مناقشة هذه السيمفونية المفعمة بالشغف بطرح سؤال: ما الذي يأتي أولا ؟هل الفنون ثم التنمية، أم التنمية ثم الفنون؟

1

في الفصل الأول من الكتاب يحاول الكاتب أن يوضح القيمة الوسيلية instrumental اللاوسيلية non instrumental للفنون وقام بعرض أخر كحركة أولى تطورات حالة كل من الولايات المتحدة الأمريكية، ونيجريا، في تحديد سبل قيمة مساهمة القطاع الإبداعي في الاقتصاد. ففي الولايات المتحدة الأمريكية عمد مكتب التحليل الاقتصادي بتسجيل النفقات، الموجهة من أجل البحوث والتنمية والموجهة كذلك إلى «الترفيه والأعمال الفنية والأدبية الأصيلة كاستثمار محدد، وهذا المكتب هو وكالة مهمتها أن تساعد المكتب في الوصول إلى فهم أفضل لاقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية ؛وعندما قامت الوكالة بمراجعة إحصائية وبتوثيق نفقات الاستثمار في الفنون مع ما ينفق على البرامج الجاهزة، كشفت المراجعة عن أن فئة الاستثمار الجديدة المسماة «منتجات حقوق الملكية الفكرية» أدت إلى زيادة في الاقتصاد الأمريكي تقدر بنحو «3في المائة من حجم هذا الاقتصاد، أو 400دولار أكثر مما كان يعتقد أن الأمر عليه من قبل».

وفي تجربة مماثلة في نيجريا، تبين من خلال إعادة التوثيق والمراجعة لبعض الفئات الإحصائية، زيادة الناتج المحلي الإجمالي لها على نحو 90في المائة.

وهكذا بينت الممارسات الإحصائية الخاصة، إن تقدير الحسابات في نيجريا وغيرها من الأماكن في العالم، أقل اهتماما بأن تضع في اعتبارها الجوانب الإبداعية، اللامادية، من الاقتصاد. ويكتشف المؤلف أن الدول النامية وشركاءها من الدول المتقدمة، نادرا ما يهتمون بالكيفية التي تثير الثقافة من خلالها أفكارا خاصة بالنمو الذي تنساب فوائده على أفقر الفقراء.

يستشهد الكاتب بجمهورية كوريا الجنوبية للتدليل على أن الدول التي تتجه نحو الازدهار الاقتصادي، هي دول تستثمر في الأفكار، ورغم أن كوريا الجنوبية لم تكن خالية من بعض المشاكل، ورغم كون اقتصادها يعتمد في معظمه على التصنيع إلا أن كوريا نجحت في تقديم أغاني موسيقى Pop Hits تحقق منها أرباح كثيرة. وهكذا يتبين من خلال هذه الأمثلة أهمية ما يسمى ب «الاقتصاد الإبداعي»، الذي هو اقتصاد ضخم، فهو اقتصاد كبير وفي حالة نمو مستمرة حتى في ظل الازمات الاقتصادية.

كما حاول أن يبين الكيفية التي أسهمت الفنون من خلالها في الابتكار، حتى في بعض قطاعات الاقتصاد التي تبدو، ظاهريا، غير مرتبطة بالفنون، ف «الفنون يمكن أن تؤدي إلى الابداع، وهذا الابداع نفسه يستحث، بدوره على ظهور الابتكارات في مجالات أخرى، كما أنه تأتي معه غالبا أرباح أخرى غير متوقعة» ص49. ورغم أن هناك كثير من الافكار الجيدة التي تنتج كل يوم، فإن القليل منها هو الذي ينجح وهذا لا يعني أننا لا ينبغي ننشئ البيئة التي تشجع على الابداع والابتكار، وهنا يأتي دور الاستثمار في التعليم لتحقيق مزيد من الخبرة والمعرفة. والاستثمار في التعليم لكسب المزيد من الخبرة والمعرفة يجعل من تكاليف التعليم غير ذي بال. فالزيادة في إجمالي الاستثمارات سوف تؤدي إلى خفض تكلفة وحدة العمل. فالمتعة واللعب كانا مسؤولين عن ملاحظة وتصور كثير من الأفكار والمؤسسات الأكثر أهمية اليوم، فإن للفنون مكانا بارزا في العبقرية أيضا، وذلك لأنها تؤدي، في ذاتها، إلى مزيد من اللعب والمتعة. وكما يكون وجود خبراء من مختلف التخصصات حيوي بالنسبة لشركة معينة التي تجلب خبرات مختلفة لمشكلة معينة، فّإن حل مشكلة الفقر لا تقع على عاتق خبراء الاقتصاد لوحدهم، بل لابد من تدخل الفنون بما تحمله من وعد مكلل بالنجاح. وهنا يتساءل الكاتب، كم من مرة خضعت مثل هذه القراءة للنقاش والجدل فيما يتعلق بالعمليات الخاصة بتكوين المعرفة أو تلك الخاصة بسياسات التنمية؟ ص53.

ولدعم شرعية هذا السؤال، قدم لنا نماذج ساهم فيها الاقتصاد الإبداعي في النمو الاقتصادي. وأشار إلى إن الدور الذي ينبغي أن تلعبه الفنون يلخص أيضا تلك الحاجة إلى خلق بيئات مناسبة تسمح الأنظمة الفكرية المختلفة بأن تترابط معا، وعلى نحو يحفز الإبداع والابتكار.

وعلى هذا الأساس، تناول الموضوعات الرئيسية المتكررة الخاصة بالفنون، والشمول الاجتماعي، ورأس المال الاجتماعي، من ناحية، ومن ناحية مقابلة الموضوعات الخاصة بالإقصاء الاجتماعي والارتباك أو التشويش الثقافي، وأعطى مثال واضح من افريقيا من خلال نموذج دولة مالي عام 2012 حين شهدت معارك حامية الوطيس، ساهم التشويش الثقافي والتعصب في تأجيج الصراع فيها.

وينتهي هذا الفصل بتذييل يبشر بقدوم الموضوع الرئيس الأخير الخاص بالتجارة العالمية ومنها رعاية التجارة في الفنون، ويرى الكاتب أنه بالنظر إلى جميع الفوائد الخاصة بالفنون المادية وغير المادية، القابلة للقياس وغير القابلة كلها، فإنها جميعها في حاجة إلى أن تُدعم، وهو الموضوع الذي عاد إلى الاهتمام به أكثر في الفصول الرابع والخامس والسادس من هذا الكتاب.

2

ينتقل الكاتب في الفصل الثاني إلى التمييز بين مفهومي «رأس المال الإنساني»، و«الكفاءة الإنسانية»، وفي هذا السياق يتناول الكاتب أهمية الفنون في التعليم، هذه الفنون التي تسهر على رعاية العقول الإبداعية من أجل التنمية. وقد استهل الفصل بمقولة نيلسون مانديلا الذي يرى «إن التعليم هو الأداة الأكثر قوة التي يمكن أن تستخدمها في تغيير العالم». ولا يضع الكاتب تمييزا بين المعرفة والفن، حيث أن الفن عنده هو المعرفة. ولأن الفنون تجسد الإبداع والابتكار ومن تحقيق الابعاد الكاملة للتنمية، فإنه يدعو الأنظمة التعليمية في العالم أن تركز على الفنون وليس فقط على الرياضيات والعلوم التي يعتقد الناس سابقا أنها الوسيلة الوحيدة في تكوين الثروات.

إن المشكلة التي حاول الكاتب إثارتها بعد عرضه التجربة الإيجابية لمعهد أفغانستان القومي للموسيقى، هي تلك المزاعم التي نجدها عند الكثير من الناس الذين يعتقدون أن الفنون «هي نوع من الرفاهية، مقارنة بالموضوعات الأخرى «الأكثر فائدة» مثل الرياضيات والعلوم» ص85.

ويعتبر التعليم على نحو عام مسارا مهما نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي، لأن الفوائد التي يحققها التعليم تتجاوز دورها كمجرد رأسمال بشري في عملية انتاج السلع. وقد شدد على أهمية القيمة الخاصة بتعليم الفنون لأن لها قيمة واسعة المدى، حيث يعمل تعليم الفنون على تنشيط سمات كثيرة تشتمل على فوائد كثيرة. ولهذا أطلق على الفنون اسم «أسلحة التعليم الشامل». فاستبعاد تدريس الفنون إلى جانب المواد الدراسية الأخرى للأطفال، يعني أن المخ لن يعمل بكل كفاءة بشكل عام. لأن للفنون دور كبير في تعليم نماذج جديدة من السلوك.

وفي ختام هذا الفصل، دعا الكاتب إلى زيادة استخدام الفنون من أجل توعية الناس حول القضايا الاجتماعية مثل اعتماد مسرح التنمية، أو التمثيليات الصامتة وذلك بالنسبة إلى الأمن والسلامة في الطرقات، ويمكن استخدام الفنون كذلك لتفنيد الخرافات وغيرها من الأمور السلبية التي تعيق تقدم الناس. ولا يمكن أن تحدث هذه الزيادة إلا بتمويل وزيادة المبادرات الخاصة بالفنون، خاصة وأن الاستثمارات في مثل هذه المبادرات غالبا ما تتلقى تمويلا هزيلا حتى لو كان تأثيرها عظيما.

3

«يرسل العالم إلينا النفايات، فنرد عليه بالموسيقى»، بهذه المقولة الهادفة لفافيو شافيز، من الباراغواي، استهل الكاتب الفصل الثالث من الكتاب، ويدور الفصل حول كيف يمكن أن يفسر الفنانون، وكذلك أعمالهم الفنية، بعض الأمور الصعبة، بما في ذلك التغير المناخي، ربما على نحو أفضل من العلماء أحيانا، خاصة وإننا نعيش في عصر القلق المناخي وعصر المشقة البيئية، مما يتطلب منا سعة الحيلة والخيال حتى نتمكن من معالجة هذه الأمور. ويرى الكاتب بأننا نحن في أمسِّ الحاجة إلى هذا الأمر؛ وذلك لأن النشاط المناخي يتطلب تغيرا في طرائق التفكير، كما أنه أحيانا ما يكون الدرس متعلقا بالطريقة التي يستطيع الفن من خلالها أن يلهمنا من أجل الاستفادة من ذلك القليل المتاح لنا كي نستطيع أن نعيش حياة أكثر استدامة. ويمكن للفنون أن تحسن إدارة أمور البيئة، وهذا ما يفعله المصورون الفوتوغرافيون والفنانون التشكيليون وغيرهم من الذين الذي يقومون بتصور واقع بيئتنا المتدهورة.

ويمكن للفن أن يدعو الناس على نحو غير تصادمي، إلى أن يفكروا في أنشطة ترتبط بحياتهم اليومية، وأن يتأملوا كذلك ما تعنيه تلك الأنشطة بالنسبة إلى التغير المناخي.

ومن الباراغواي قدم لنا مثال فافيو شافيز، Favio Chavez وهو مهندس بيئي، والذي تصادف، أن كان أيضا عازفا موسيقيا، قرر ذات يوم أن يفعل شيئا كي يمنع الأطفال من اللعب في مكب النفايات، لقد قدم لهم دروسا في الموسيقى، وسرعان ما استوعب الأطفال والآباء على حد السواء هدفه، وذاع صيت هذه الموسيقى سريعا، إلى درجة أن ما كان متوافرا لدى شافيز من آلات موسيقية التي يقدمها للأطفال لم يعد يفي بالحاجة بينهم لتعليمهم. واهتدى شافيز مع كولا، أحد جامعي النفايات الى فكرة: «صنع الآلات الموسيقية من بقايا تلك النفايات، وقد استخدموا في ذلك علب الصفيح، وشوكات الطعام والزجاجات، والأسلاك، وكل ما قد يكون صالحا للعمل». ص115. وبتدوير النفايات، تم صنع الآلات منها ذات ميزة أفضل من تلك التي تصنع في الصين. ومن هذا التدوير ولدت قصة أوركسترا إعادة التدوير الشهيرة في كاتيورا.

القسم الثاني

يأتي القسم الثاني من الكتاب ليعالج قضية التجارة في الخدمات، وكيف إن منظمة التجارة العالمية كشفت عن أن الخدمات تمثل أكثر قطاعات الاقتصاد العالمي بروزا، من حيث سرعة النمو، وهي قطاع مسؤول كذلك عن نحو ثلثي الناتج العالمي، وعن نحو ثلث الوظائف في العالم، ونحو 20في المائة من التجارة العالمية.

4

ويناقش الفصل الرابع من الكتاب دور التجارة في الخدمات الثقافية، ويبدأ هذا الفصل بالتقديم للأشكال الأربعة للتزويد بالخدمات كما حددتها الاتفاقية العامة للتجارة والخدمات(غاتس) (GATS) (ص134)، مع استعراض أيضا لمفهوم التجارة في مجال القيمة المضافة. ومن خلال تركيز ما، على أفريقيا، أورد الفصل تجربة نوليوود في صناعة الأفلام بنجيريا، نوليود التي تعد ثاني أكبر مكان من حيث العاملين بعد قطاع الزراعة مباشرة، وذلك في أثناء فحصه الكيفية التي قد يمكن من خلالها أن تسهم مجالات معينة، مثل العلامات المميزة للأمة والملكية الفكرية، في التنمية. وبما أن حقوق الملكية صممت من أجل الحفاظ على المعرفة، فهي إذا شديدة الأهمية. وبالنظر إلى وضع هذه الحقوق في الدول النامية، فإنه يعجز الناس في الغالب من الاستفادة منها، لأن القوانين التي تعنى بها لم تفحص بعناية فائقة.

وفي هذا السياق، يلح الكاتب على تعليم صُناع السياسات، وكذلك الجمهور العام، بعض الدروس عن تكاليف، وفوائد، بل وحتى جوانب القصور الخاصة بموضوع الملكية الفكرية. بل أكثر من ذلك مطلوب تدريب حتى السلطات القضائية على فوائد الملكية الفكرية وحدودها لتطوير القطاع الإبداعي.

إن القضية الرئيسة هنا هي أن ندرك كيف أن ذلك القبول للفن يمكن أن يجني حصاده، بالنسبة إلى تلك التنمية التي تحدث في تلك الاستراتيجيات المتنوعة والتي يمكن أن تُربط أيضا حتى بالقيمة المضافة وتكوين العلامات المميزة للأمة. وعلى الدول النامية إذا ارادت تحقيق مكاسب مرتفعة أن تفعل كل شيء تستطيع فعله من أجل توبع اقتصاداتها واسواقها أيضا وتصدير الموسيقى إلى دول مختلفة.

وناقش الكتاب دور التجارة في الخدمات الثقافية. وأشار إلى إنه إذا كان من السهل علينا رؤية عملية تبادل السلع، وإذا كانت الخدمات تشكل جانبا كبيرا من الاقتصاد العالمي، فإنه من الصعب بمكان مشاهدة عملية تبادل الخدمات بصريا. ويعرف الكاتب الخدمات من الناحية التقنية، بكونها «هي تلك الأشياء اللامادية التي تمتد من فن الهندسة المعمارية إلى النقل الفضائي»، ص133. ويصنف التجارة اللامادية في الفنون تجارة أيضا في الخدمات، ومن فوائدها أنها يمكن أن تدفع نحو الاستثمار في مجالات أخرى غيرها، وذلك من خلال دورة معززة لذاتها.

وبما أن صورة أي دولة أمر مهم، في ضوء هذه الاعتبارات، فإن استراتيجية تعزيز هذه الصورة، عن طريق التجارة والخدمات الإبداعية، في حالة الدولة النامية، أمر مناسب، وعلى نحو خاص، ولاسيما أن الهدف من بين أهداف التنمية المستدامة يتمثل في زيادة المعونات من أجل التجارة، بما في ذلك المساعدة التقنية لما يُسمى بالدول الأقل نموا.

5

نظرا لكون أن للتكنولوجيا الرقمية قدرة مذهلة على الإسهام في التنمية، و قدرتها كذلك على نقل المنتج الإبداعي عبر الانترنيت ووسائل التواصل الاجتماعي من أبعد قرية صغيرة جدا إلى المنصة العالمية، والترويج للفنانين وحتى الاشكال الفنية المغمورة، ونظرا لكون إن الوسائل الخاصة بالتكنولوجيا الجديدة والانترنت قد منحت الدول النامية خيارا ملائما لتعزيز الإيداع وكذلك ريادة الأعمال الخاصة بها في السوق العالمي، هذه كلها أمور لا ينبغي التقليل من شأنها أبدا، وفي هذا السياق، يركز هذا الفصل على قضية تتعلق بالفنانين بلاحدود في العصر الرقمي، ويتساءل الكاتب كيف يمكن للصناعات الموسيقية الخاصة بالدول النامية أن تمارس تأثيراتها

الفعالة في هذا السوق العالمي للموسيقى عن طريق الوسائل التكنولوجية الحديثة؟، وحتى تتمكن التجارة الرقمية من تقديم مساهمات ذات قيمة في التنمية خاصة وأن الدول النامية لديها منتج فريد يمكن أن يجذب أنظار جماهير العالم، ناقش الفصل الحاجة إلى الاستثمار في الشركات الإعلامية الناشئة، واقترح وجود «تأشيرة دخول» للفنانين الموهوبين من أجل تشجيعهم على أداء عروض حية، حتى وإن لم يكونوا بالمستوى نفسه من الموهبة الذي كان عليه مايكل جاكسون.

ويقدم الفصل مثال بتجربة نيجيريا مع مجموعة شركات تدعى iROKO التي استطاعت أن تبتكر وتتحدى القيود الجغرافية من خلال مكاتبها العاملة في «لاجوس، ولندن، ونيويورك، وجوهانسبرغ، وكيغالي، ومن خلال فريق من أكثر من مائة فرد» ص184، وحققت نجاحا باهرا رغم البينية التحية الضعيفة وفساد أكثر لا يختلف عن وضع دول نامية كثيرة. ولتعزيز التجارة في الخدمات والعمل على تحقيق المساواة بين الجنسين، يطرح الكاتب بعض الخيارات المتاحة أمام السياسات في هذا المجال، هذه الخيارات تتمثل في ضرورة تقوية سهولة الوصول إلى شبكة الإنترنت داخل الدول وفيما بين الدول، والعمل على تطوير موقع للموسيقى العالمية من أجل التنمية. 6

يدور الفصل السادس حول السياحة الثقافية التي ترتبط بأي شيء ثقافي من المتاحف إلى مهرجانات الرقص وغيرها من الفنون، وقد وصفها الكتاب بأنها هي سياحة ممتعة، وتتسم بالرومانسية. ووفقا لتقارير مجلس السفر والسياحة العالمي، «فقد شهدت السنوات الأخيرة نموا في السياحة بمعدل أسرع من المعدل الذي شهده الاقتصاد الاوسع عامة، وكذلك النمو الذي شهدته القطاعات المهمة الأخرى مثل صناعة السيارات والخدمات المالية والرعاية الصحية» ص211. وإذا كانت السياحة مدعمة للتنمية في إطار التنوع الثقافي، فإن القطاع السياحي أيضا يمكن أن يتنوع. وإن التجارة في الخدمات التي تقع السياحة ضمن نطاقها، لا تفهم على نحو جيد بأنها تجارة. وإذا كان السؤال المطروح هنا يتمثل في الكيفية التي يمكن أن تمارس من خلالها الثقافة دورا أكبر في تعزيز السياحة المحلية، فإن الكاتب يعود لمناقشة السياحة إلى مثال نيجيريا، من أجل توضيح فرص وتحديات السياحة الثقافية في التنمية. ويفتتح الفصل باستحضار الهدف (8-9) من أهداف الأمم المتحدة للتنمية المستدامة الذي يقول: ب«أنه ينبغي بحلول العام 2030 ابتكار وتنفيذ سياسات لتعزيز السياحة المستدامة، التي تخلق الوظائف وتدعم الثقافة والمنتجات المحلية». وفي تناوله للسياحة الثقافية يطرح الكتاب كذلك قضية السياحة الإبداعية التي استخدمها بالتبادل بين هذين المصطلحين. وتساهم قطاع السياحة الإبداعية بخلق وظائف أكثر للشباب، وتلعب السياحة الثقافية دورا أساسيا في التنمية الحضرية والإقليمية.

ويديل الكاتب هذا الفصل بمناشدة تمويل البحوث في المجال المرتبطة بالفنون لأن موضوعها لايزال قيد الدراسة ويجهل عنه الناس الكثير.

القسم الثالث

في القسم الثالث من الكتاب يعرض المؤلف تنويعات على تيمة واحدة، حيث ناقش مسألة اللامساواة بين الجنسين في الفنون، لما لأهمية المساواة بين الجنسين في فنون الأداء من تحقيق التنمية، وبعدها تطرق القسم إلى دور الفنون في الصحة النفسية، والتعافي الاجتماعي، والتجديد الحضري.

7

يعالج الفصل السابع من الكتاب مسألة اللامساواة الموجودة بين الجنسين في فنون الأداء، وهذه اللامساواة تعيق المساهمة الكاملة للمرأة نتيجة الصور النمطية السلبية عنها، هذه الصور التي تعمل على استمرار معايير التمييز ضدها، وهذا ما يساهم في تكريس التخلف. ويستهل الكاتب الفصل بالهدف (1-5) من أهداف الأمم المتحدة الخاصة بالتنمية المستدامة.

ولمعالجة مسألة اللامساواة بين الجنسين، يلقي الفصل الضوء بشكل خاص على بوليود الهندية، وحتى هوليود في الولايات المتحدة الامريكية التي قال عنها أنها لم تتصرف حتى الان بشكل جيد، والتعامل بشكل جدي مع شكاوى التحرش الجنسي والإساءة إلى صورة المرأة. ولهذا تتمزق الفنون الأدائية عن طريق الفروق بين الجنسين، حيث إن الأفلام الهندية يهيمن عليها الذكور، فصناع الأفلام في بوليود خذلت النساء في الهند، حيث يصورون في العادة، الشخصيات الانثوية في الافلام، كأنها عاجزة عن التفكير، واتخاذ القرارات بمفردها. ويختلف التصور السلبي حول المرأة بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية أو حتى عن أولئك اللاتي يعشن في مناطق عشوائية فقيرة، أو ضواحي المراكز الحضرية. وعلى هذا الأساس، ومن أجل المصلحة العامة، على الفنون، وفي العالم كله، وليس في بوليود أو هوليود، أن تفعل شيئا ما حيال هذا الأمر، إنها ليست مشكلة في الهند فقط، إنها مشكلة عالمية أيضا. لأن أمر المساواة بين الجنسين يعد مهما بالنسبة للتنمية. فإسهامات المرأة في جوانب هذا العالم الاقتصادية، والسياسية، وكذلك إسهاماتها المتعلقة بجودة الحياة الاجتماعية، ذات أهمية كبرى. ذلك «إن ثروة الأمم ليست للرجال فقط؛ بل هي أيضا للنساء» ص253. فالعمل ينجز من طرف الرجال والنساء معا، والثروة تكون وتولد من طرف النساء الرجال معا. واللامساواة بين الجنسين تبقي عددا كبيرا من الناس في الهامش، ليس النساء فقط بل أيضا الرجال والأطفال. فقضية المساواة لاتهم النساء فقط، بل كذلك حتى الرجال والأطفال الذين لهم حاجات مختلفة.

8

إذا كانت الصحة الجسدية السيئة تسبب خسائر في الإنتاجية، فإن الصحة النفسية التي تم تجاهلها لا تقل أهمية. ولايزال طريق طويل أمام العالم كي يصل إلى هدف الاعتناء بالصحة النفسية. ووفقا لهذا المنظور، يستهل الفصل الثامن حديثه بمقولة منظمة الصحة العالمية حول الصحة النفسية والاضطرابات العقلية، التي قال عنها، أنها تعد أسباب العجز في العالم. ويورد الكاتب الطرائق التي كان للفنون من خلالها دور نفعي في علاج الصدمات في دول تمتد من روندا إلى أوغندا، وفي مدن تمتد من نيو آرك New Ark إلى ريو RIO. وهي قصص تشكل دليلا على الحاجة إلى استثمار الفنون في مجالات الصحة النفسية والتعافي الاجتماعي والتجدد الحضري. و«إذا كانت الصحة النفسية ثروتنا، كما قال رالف والدو إميرسون، فإننا لم نجن بعد؛ على نحو كامل فوائد المجتمع السليم صحيا خاصة عندما يتعلق الأمر بالاضطرابات العقلية»ص260، وغالبا ما نتجاهل نحن بني البشرهذه القضية، لكون أسباب هذه الاضطرابات غير مرئية، ولم تعد لها مستشفيات مهمة تعنى بالصحة النفسية. وهنا تكون للفنون قيمة علاجية. ولبناء مجتمع سليم، تناول الكاتب دور الفنون في الصحة النفسية، والتعافي الاجتماعي، والتجديد الحضري. وكما يمكن للفنون الفنون أن تؤدي دورا حيويا في التقدم المتعلق بالأبعاد الكاملة للرفاهية الإنسانية، يمكن لها أيضا أن تستغل في أغراض سيئة، مثلما حدث في الإبادة الجماعية بروندا في عام 1994، عندما أجبرت النساء اللواتي يقرعن الطبول في فرقة «إنغوما نشايا» الموسيقية أن يغنين الأغاني الخاصة بالعصابات المسلحة التي تنفذ عمليات الاغتصاب وذلك لتزييف الواقع والتلاعب بعقول الناس.

وعلى الرغم من أن الفنون ليست الدواء الشافي من كل العلل والأوجاع، فهي على الأقل، في متناول اليدين من اجل العلاج. وهنا يرد الكاتب مثال في المناطق الشمالية من أوغندا التي مزقتها الحرب، وخلفت صدمات كثير في نفوس الناس، وحيث الدولة لم تستطيع أن تمد المضطربين بالأطباء النفسانيين ولا حل سوى اللجوء ألى الفن من أجل ترميم أنسجة المجتمع الممزقة. فالفنون هنا مهمة، وليست وظيفتها تكميلية. وما نذكره مع أوغندا، قد يكون مفيدا أيضا في أماكن أخرى حول العالم، حيث ينبغي تحقيق نوعا من التكامل بين الفنون مع خدمات الصحة النفسية، ليس فقط من أجل تعافي الأفراد، بل أيضا من أجل التعافي من العلل الاجتماعية والمدن والمناطق «المكتئبة»، ليس فقط في لإفريقيا بل في الأحياء الفقيرة في ريو إلى المدن الداخلية في أمريكا. وقد كشفت تجربة الكاتب في نيو آرك، إن لبعث وإنعاش الحياة في المدن التي تمزقها الفقر والجريمة والاضطرابات العرقية، بأن «الفنون ليست الأداة الوحيدة التي يمكنها بعث حياة جديدة في الأماكن؛ فالألعاب الرياضية وغيرها من الأنشطة من الأمور التي ينبغي أن يحسب حسابها هنا» ص270.

ويكون الامر ذات قدر كبير من الأهمية في ريو، حيث تكون عملية تربية الأطفال صعبة للغاية، في ظل ظروف، حيث يوجد تجار المخدرات الذين يشبهون أمراء الحرب، ويحظون بسلطات وسيطرة تفوق ما تحظى به الشرطة، كما أنهم موجودون في حياة هؤلاء الأطفال أكثر من وجود والديهم أنفسهم في حياتهم. إذا كان الأمر كذلك، فكيف سيكون واقع الحال مع أعداد مهمة من الاطفال بلا آباء ولا أمهات؟، ولمواجهة تحديات الفقر واللامساواة تستخدم الموسيقى والثقافة من أجل تقديم الامل والفرصة للشباب، إلى حد أن الحياة تسترجع في الاحياء الفقيرة من خلال أغنية واحدة في كل مرة. فالفنون والثقافة تضع الناس في قلب التنمية.

بعد رحلة طواف من أوغندا إلى رواندا، ومن آرك إلى ريو، يعرج الكاتب في رحلة طواف مختصرة مع الصحة النفسية إلى منطقة آسيا، التي قال عنها إنه على الرغم من أن هذا المرض النفسي ليس من السهل احتواؤه، بسبب التفاوت بين الريف والحضر، وبسبب التعقيد الخاص بالمرض، فإن السياسات الصحية الخاصة بالصحة النفسية تحظى الآن بالاهتمام من إندونيسيا إلى اليابان.

القسم الرابع

يدور القسم الرابع من الكتاب حول إمكانية جمع البيانات الإبداعية من أجل قياس أبعاد الثقافة والفنون في الاقتصاد والمجتمع.

9

يثير هذا الفصل انتباهنا إلى ضرورة جمع البيانات الإبداعية متى استطاع الباحثون ذلك ويضع هذا الفصل في اعتباره — وعبر هذا المسار – عملية جمع البيانات الثقافية، ويصرح الكاتب منذ البداية، بأنه حتى لو سمح لنا بذلك، فإننا لا يمكننا حقا التقاط كل ما يمكن أن تقدمه الفنون بالأرقام، حتى لو توفرت لدينا البيانات، التي ترادف أيضا الإحصاءات فإنها لا تخبرنا بالقصة الكاملة، «إن الباحثين القادة يعرفون أن البيانات ضعيفة»ص290، فالبيانات ليست هي حقيقة الواقع. ونظرا لغياب أي ذرة من البيانات التي يمكن أن تدعم زعم الباحث حين يقترح أو يقول إن الفنون مهمة بالنسبة إلى الصحة النفسية، ونظرا لكون أن كثيرا من الفاعلين في مجتمع الفنون، ليسوا معنيين بعمليات جمع البيانات، واجه الكاتب تحديات خاصة بإيجاد بعض الأرقام التي يمكن أن تدعم بعض الشواهد القصصية، بشأن دور الفن في التنمية. ولم يخف الكاتب، أن بعض الدوائر تنظر إليه مثل بائع زيت الثعبان حين يتحدث معها عن أهمية الفنون بالنسبة إلى الصحة النفسية. وكثيرا ما يكون إضعاف القضية الخاصة بالسياسات القوية المتعلقة باستخدام الفنون في التنمية من خلال ذلك النقص الموجود في البيانات. وأكثر من ذلك، حتى تلك البيانات المتاحة بشأن الفنون قد تثير أسئلة بشأن أمور كثيرة منها مناهج البحث المستخدمة.

ومن الأشياء التي تعمل على تعقيد عمليات قياس إسهامات الفنون المادية واللامادية في التنمية، الحقيقة التي فحواها أن الأنشطة الثقافية تضم، بين جنباتها، مجموعة من القطاعات التي تشتمل على التعليم، والتجارة، والتنافسية، والفقر، والتنمية الريفية، والحضرية والاجتماعية. وإنه من أجل التعامل مع هذا المدى؛ لا بد من وضع الحلول المتقاطعة من الاعتبار وذلك بالنسبة إلى مجالات مثل الوظائف، والنوع الجنسي، والهشاشة والصراع والعنف. ويجب أن نضع في الاعتبار إن الاقتصاد الإبداعي الذي أصبح معقدا بالفعل؛ يخضع للتحول المستمر، وهو اقتصاد مدفوع، ومتحرك، بفعل عمليات التقدم التكنولوجية التي لا تهدأ. ويدعونا الكاتب إلى الاستفادة من جهود اليونسكو، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية من أجل قياس مدى إسهام الثقافة في التنمية الاقتصادية، وبذل مجهود لقياس التجارة الثقافية من القيمة المضافة، والعمل كفريق واحد مع بنوك التنمية الإقليمية، وتفويض الجماعات لجمع البيانات الخاصة بالقطاع الثقافي وتوحيدها، وإقامة شراكات إبداعية مختلفة، وجمع البيانات عن طريق غوغل ومحطات الراديو ومنصات البث وغير ذلك من الوكالات، ويخلص الكاتب إلى فكرة مفادها: إن تقصي طبيعة التنمية وأسباب حدوثها ينبغي ألا يكون مقصورا على استخدام الاقتصاد والإحصاء ولزم اتباع نهج متعدد الاختصاصات. ذلك لأن الجهد المشترك، وعبر مجالات التخصصات المختلفة، بين الاقتصاديين وغير الاقتصاديين وبين الفنانين وغيرهم، هو أمر حاسم أيضا.

خاتمة

بناء على ما سبق، يتبين أن الكاتب حاول أن يوضح لنا كيف يمكننا أن نصنع المستقبل الذي نريده عن طريق الثروة الإبداعية للأمم، وبين كيف يمكن للفنون أن تسهم في التنمية بطرائق مختلفة وبالاعتماد على الابداع والابتكار. وخلص الكتاب في النهاية وكجواب للسؤال الذي انطلقنا منه، إلى أن التنمية لا تأتي أولا ثم تتبعها الفنون، بل تبين أن جانبا كبيرا من التقدم الذي عرفه البشر يتعلق بالفنون والثقافة وبالخيال الموجود في الفكر والفعل الإنساني، ومن أجل بناء «كريبتفريا» البلد الذي تخيله، كان لابد أن يكون هناك تعاون بين المؤسسات والتخصصات المختلفة. وهكذا يختتم الكاتب مؤلفه بأشبه بدعوة إلى تخيل المستقبل الذي نحتاجه، وأن نعمل على صناعته من الآن. ولأننا بحاجة ملحة إلى مناخ جديدة للتنمية، هناك الكثير الذي يمكن أن نفعله على نحو مختلف بالاعتماد على الفنون، من أجل مساعدة الفقراء للمضي في العيش الكريم، وتحسين حياة الناس. ومثلما نحاول تمويل السدود والموانئ والطرق والمطارات، فينبغي علينا كذلك أن نبحث عن كل تلك السبل المؤدية إلى تعزيز ودعم التجارة في الموسيقى والأفلام، وكذلك استخدام الثقافة والسنيما والمسرح من أجل تعزيز التقدم الاجتماعي، لإحداث نوعا من التكامل بينه وبين المصادر المتنوعة والكثيرة للتقدم الاقتصادي. وهكذا يسير احتفاؤنا بالإبداع في الفنون جنبا إلى جنب مع ذلك التقدير الخاص أيضا للمصادر المتنوعة للتقدم الاقتصادي، لإثراء حياة الناس من مختلف الجوانب.

الهوامش:

[1] –باتريك كابندا، الثورة الإبداعية للأمم: هل تستطيع الفنون أن تدفع التنمية إلى الامام؟، ترجمة شاكر عبد الصمد، سلسلة كتب عالم المعرفة، عدد 496، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو، 2022.

[2]- https: //blogs. worldbank. org/team/patrick-kabanda